مراجعات فى الفلسفة :

نظرية المعرفة عند شوبنهور

للاستاذ عبد الكريم الناصرى

يستهل شوبنهاور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) أثره الرئيسى « العالم كإراد وفكرة » بقوله : « العالم فكرتى » . ولأجل أن يفهم معنى هذا القول على وجهه الصحيح يحسن بنا أن نقدم له بكلمة موجزة فى نظرية المعرفة عند فيلسوفين ، أحدهما إرلندى هو بركلى (١٦٨٥ — ١٧٥٣) ، والآخر ألمانى هو كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) .

ونظرية الأول تتلخص فى عبارته المشهورة : « وجود الشىء أن يدرك » أو « الوجود هو الإدراك » . فقد كان « لوك » ميز بين « الكيفيات الأولية » و « الكيفيات الثانوية » للموضوعات الخارجية . فالأولى ، كالامتداد والشكل والحركة ، توجد فى الأشياء أنفسها بصرف النظر عن العقل . أما الثانية ، كالألوان والأصوات والروائح ، فلا وجود لها خارج الحس والعقل المدرك . وقضى بذلك على فكرة « الجوهر المادى » وجعل العقل هو المحل أو الحامل للموضوعات ، وكل ما تتصف به ، من امتداد وشكل وحركة وزمان وأصوت وأضواء وألوان . فكل هذه الأمور لا يمكن أن تقوم ، أو تتصور ، مستقلة عن الذات المدركة ؛ ومن هنا كان من المناسب تماماً أن تدعى « أفكاراً » . ويقول بركلى هنا : إن أحداً لا ينازع فى أن ذكرياتنا وتصوراتنا وتخيلاتنا إنما توجد فى الذهن ، ولا يمكن أن توجد بمعزل عنه ؛ ولكن لا يقل عن هذا بداهة أن الإحساسات أى « الفكرات » المطبوعة على الحس ، على اختلاف مركباتها ، أى الموضوعات الخارجية المركبة منها ، لا يمكن أن توجد إلا فى ذهن مدرك . وتتضح هذه الحقيقة كل الوضوح حين نتدبر معنى لفظة « الوجود » أو « الموجود » كما تطلقان على موضوعات الحس . فما عساى أعنى حين أقول إن هذه المائدة موجودة ؟ أترانى أعنى شيئاً غير أنى أبصرها وأحسها ؟ وإذا كنت خارج الغرفة ، وقلت إن المائدة موجودة ، أترانى أعنى شيئا غير أننى لو كنت فى الغرفة إذن لأبصرت بها ، أو أن هناك ذهناً آخر يدركها ؟ — لقد كانت ثمت رائحة : هذا معناه أنى شممتها ؛ كان ثمت لون أو شكل ، أى أنى أدركته بالبصر أو اللمس . هذا ، كما يقول بركلى ، هو كل ما يمكن أن يفهم من أمثال هذه التعبيرات . أما القول بوجود الموضوعات المادية وجوداً مطلقاً فقول متهافت ، غير مفهوم أبداً . فإن وجود (esse) الأشياء أن تدرك (Percipi) ، ولا يمكن أن يكون لها أىُّ وجودٍ خارج الأذهان التى تدركها[1] .

ومن هنا فالمعرفة تتألف من عنصرين مختلفين ، هما الموضوع أو الفكرة المعروفة ، أو الذات العارفة . وليس يوجد إلا المدرَك أو المدرِك .

ولنلاحظ هنا أن كون الموضوعات المحسوسة فكراتٍ فى العقل لا ينفى ما بينها وبين الأخيلة والتصورات من فروق هامة ؛ كما أن إنكار « الجوهر » المادى لا يعنى إنكار واقعية العالم المادى ، وإنما معناه إنكار أن تكون هذه الواقعية مستقلةً عن العقل ، وأن يكون للموضوع المادى وجود مطلق لا يتوقف على الذات المدركة .

ونظرية شوبنهاور فى العالم الخارجى لا تختلف فى جوهرها عن نظرية الأسقف البركلى ، ومع ذلك فإنه يسلك إلى نظرية المعرفة طريق « كانت » ، ويستعير من مؤسس « النقد » لغته وأسلوب تفكيره . فلا مفرَّ إذن من إلقاء نظرة ، ولو عامة خاطفة ، على نتائج نقد العقل الخالص (النظرى) ، بمقدار ما تتعلق هذه النتائج بموضوعنا .

لقد وضع « كانت » حداً حاسماً بين الشىء فى ذاته ، أو العالم المعقول ، وبين الظواهر ، أو العالم المحسوس . فالأول خارج المكان والزمان ، وخارج نطاق المعرفة الإنسانية ، أما الثانى فزمانى مكانى بالضرورة ، وداخل فى نطاق المعرفة ، والمعرفة العلمية مقصورة عليه ، لا يمكن أن تتخطاه ، فلا علم إلا العلم « بالظاهر » وقوانينه . وإنه لعلم صحيح ضرورى ، لهذا السبب : وهو أن العقل نفسه هو الذى يبدع عالم الظواهر ، أو يشارك على الأقل فى إبداعه ، ويستمدُّ له قوانينه ، ويخلع عليه شكوله الثابتة .

(١) جورج بركلى : « مبادىء المعرفة الانسانية » — الفقرة (٣) .

فالعالم المحسوس يقوم بالضرورة فى إطارين : هما المكان والزمان . ولكن هذين الإطارين لا يرجعان إلى الأشياء فى أنفسها ، وإنما هما « صورتان خالصتان » لحساسية العقل : مبدآن فطريان قبليان ، لا وجود لهما خارج الذات الحساسة المدركة . إنهما فى الواقع « أسلوبان » أو « وسيلتان » لإدراكنا الأشياء ، فلا سبيل إلى إدراك هذه إلا إذا دخلت فى المكان والزمان ، وانطبعت بهذا الطابع العقلى الأجنبىّ عنها ، وتحوّلت بذلك عن طبيعتها الأصلية ، إنهما شرطا إمكان الإدراك والمعرفة ؛ وبما أن معرفة الموضوعات هى ما ندعوه «بالتجربة» فالمكان والزمان إذن شرطا إمكان التجربة ، وعليهما تتوقف كل تجربة ، واقعة أو ممكنة ، فلا يمكن أن يكونا مشتقين من التجربة ، لأن الشرط يتقدم على المشروط ، وإنما هما سابقان عليها أو هما « قبليان » . ولذلك ترانا نستطيع أن نتمثل المكان والزمان خاليين من كل موضوع ، تمثلا عيانياً مباشراً ، ولكننا لا نستطيع أن نتمثل الموضوعات بمعزل عن الزمان والمكان . ومؤسس النقد يسمى هاتين الصورتين ، معتبرتين فى نفسيهما ، «بالعيان الخالص» كما أنه يسمى الإدراك الحسى « بالعيان التجريبى » . وهذا الأخير يتوقف على شرطين : أولهما أن تقبل الحساسية أو تتسلم من « الخارج » تأثرات مختلفة ، صادرة عن الموضوع الحقيقى أو الشىء فى ذاته ؛ وثانيهما أن تترتب الإحساسات الناشئة عن التأثر فى صورتى الزمان والمكان ، إذا كان العيان يتعلق بالموضوعات الخارجية ، أو فى الزمان وحده ، إذا كان يتعلق بتعيناتنا الباطنة .

والظواهر الناشئة عن العيان تترابط برباط العلية ، وتبدو على هيئة كيات وكيفيات ، ونسب وعلاقات ، وجواهر وأعراض ؛ ولكن جميع هذه التعينات لا ترجع إلى الأشياء فى ذاتها ، وإنما هى أشكال أو « مقولات » ذهنية قبلية ، تتصور العالم وتفهمه على نحوها . والقوة أو الملكة العقلية التى تقوم بهذا الدور هى « الذهن » (أو « الفهم ») ، كما أن حساسية العقل ، أو قدرته على قبول التأثرات ، هى التى تقوم بالعيان أو الإدراك . وقد قرر « كانت » أن هناك اثنتى عشرة «مقولة» أو «تصوراً خالصاً» ، تكون ، مع المبادىء القبلية اللازمة عنها ، ومع المكان والزمان ، شروط إمكان التجربة . وتندرج المقولات ، ثلاثاً ثلاثاً ، تحت أربعة عناوين أساسية ، وتؤلف بذلك مقولا «الكمية» و«الكيفية» و « النسبة » و « الجهة » . ولا حاجة بنا إلى التحدث عن هذه المقولات ، ما دام شوپنهاور نفسه قد نبذها جميعاً ، إلا مقولة واحد : هى « العلية » . وحسبنا أن نشير — فى ختام هذه الخلاصة لمذهب « كانت » — إلى نقطتين أساسيتين فيه ؛ أولاهما أن عالم الظواهر متوقف برمته وبغير استثناء على الذات وشكولها القبلية وأن عالم الأشياء فى ذاتها (أو بالأحرى عالم « الشىء فى ذاته » ، ما دام أن « الكمية » مقولة ذهنية) مستقل عن الذات وصورها الفطرية ، ولسنا نعرف ، ولا يمكن أن نعرف ، عنه شيئاً ؛ فهو «س» مجهولة . والنقطة الثانية أن قيام الظاهرة مشروط ، مع ذلك ، بتأثير الموضوع أو الشىء فى حواسنا .

وقد هوجمت فكرة الشىء فى ذاته منذ ظهورها هجوماً عنيفاً . كيف يزعم « كانت » أن الموضوع « يؤثر » فى الحساسية ، وأن تأثيره ضرورى لحصول الإدراك ، مع أنه يؤكد فى « التحليل المتعالى » أن المقولات ، كمقولة الجوهر والواقع والعلية ، لا تصح وراء عالم التجربة الممكنة ، عالم الزمان والمكان ؟ إن العلية تتعلق بالظواهر وحدها ، فليس من حقنا أن نطبقها على ما هو خارج الظواهر ، وليس لنا أن نصف الشىء فى ذاته بأنه علة للظاهرة ، بل ولا أن نقول بوجوده أصلا . إذ من أين لنا أنه موجود ، وعلمنا محصور فى دائرة التجربة ؟ وكيف نزعم أنه « س » مجهولة ثم نقول إنه موجود ، وإنه علة الظواهر ؟

كذلك انتُقِد « الشىء فى ذاته » ؛ ومن جملة ناقديه « شولتسه » أستاذ شوپنهاور ، و « فشته » الذى أنكر ، بناء على هذا النقد ، أن يكون ثمة حقيقة مطلقة خارج « الذات » ، وانتهى من ذلك إلى أن الشىء فى ذاته هو الذات أو الأنا ؛ فالأنا المطلق اللامتناهى يضع نفسه بنفسه ، ويضع اللا أنا أو العالم الخارجى . على أن فشته ، كما يلاحظ شوپنهاور ، لم يزد على أن جعل الذات « علة » للعالم الموضوعى ، مع أن العلية هى الصورة القبلية لكل موضوع مدرك فقط ، فلا يمكن أن تمتد بالعالم الموضوعات إلى العلاقة بينه وبين الذات .

وعلى أن شوپنهاور يأخذ بالنقد الموجه إلى فكرة الشىء فى ذاته بحسب مفهومه عند كانت ، فإنه لا ينتهى من ذلك إلى إنكار

وإبطاله ، وإنما هو بضد ذلك يقر « كانت » على القول به ، ويراه كما رآه سلفه العظيم المطلق الكامن وراء عالم الظواهر . وإنما الذى يأخذه عليه أنه جعل هذا المطلق « علة » و « موضوعاً » ، ووقع بذلك فى الخلف والشناعة . إذ لا علة وراء إمكان التجربة ، ولا موضوع بغير ذات . والقول بموضوع فى نفسه ، بموضوع لا تعرفه الذات ، تناقض فى الحدود . كل موضوع فهو بالضرورة موضوع بالنسبة إلى ذات ، أو إدراك مدرك . ليس الشىء فى ذاته بظاهرة أو فكرة ، ولا هو بشىء « موجود » بالفعل ، وإنما هو المطلق المستقر وراء الظواهر والموجودات الواقعية ؛ هو ذاك الذى « يظهر » ، ذاك الذى يريد أن يوجد ، لأنه غير موجود . إنه الإرادة — إرادة الوجود . وقد قرر « كانت » أن الشىء فى ذاته ممتنع على المعرفة ، وشوپنهاور يسلم له هذا أيضاً ، إن كان المقصود بالمعرفة المعرفة الخاضعة لمبدأ السبب الكافى ؛ ولكن هناك ضرباً من المعرفة المباشرة ، نستطيع أن نكتشف به المطلق ، ونكتشف أنه إرادة سرمدية : نزوع مطلق إلى الوجود والحياة والتحقق الموضوعى .

وليس عالم الظواهر بمعلول للشىء فى ذاته أو الإرادة ، لأن العلية لا تصح إلا على الظواهر وحدها ؛ وليس هناك ، إن طلبنا الدقة فى التعبير ، عالمان مترابطان برابطة العلة والمعلول ، وإنما هو عالم واحد ذو وجهين ، وجه الفكرة أو التمثل[1] ، ووجه الإرادة أو النزوع — والأول مرئى مشهود ، والثانى مغيب غير منظور . إنه من جهة فكرة كله ، ومن جهة إرادة كله ؛ وبعبارة أخرى ، إذا نظرنا إلى العالم من الخارج فهو فكرة ، وإذا نظرنا إليه من الداخل فهو إرادة . وبعبارة أوضح ، ليس عالم الظواهر إلا تجسم الإرادة ، أو تحققها الموضوعى ؛ إنه الإرادة كما نراها ، كما تبدو لنا[2] .

وصور العالم المرئى هى الزمان والمكان والعلية ، وهى كل ما استبقاه شوپنهاور من جهاز « كانت » القبلى ؛ على أنه جعل ما أسماه بمبدأ السبب الكافى التعبير العام عن هذه الصور ، كما أنه أدرج هذا المبدأ ، فى كل أشكاله ، تحت صورة عليا ، هى ازدواج الذات والموضوع ، وسنأتى بعد على بيان هذا كله .

وبفضل المكان والزمان والعلية يتم لنا ، ولسائر الحيوانات ، إدراك العالم الخارجى . والذى يقوم بهذا الإدراك أو العيان ، ويربط المدركات الحسية برباط العلية ، هو « الذهن » وحده ، لا الحساسية ثم الذهن ، كما ذهب إلى ذلك « كانت » ؛ ولا « العقل » . ولذا « فكلُّ عيان ذهنى » . وقد ميز شوپنهاور بين « الذهن » و « العقل » كما ميز « كانت » ، ولكن على حين أن الأخير جعل العقل (بمعناه الضيق) قوة الصور أو المثل الكلية المنظمة لأحكامنا ، قصره الأول على قوة التصورات المجردة ، التى يتميز بها الإنسان على العجماوات ، وليس من شأن هذه الملكة أن تكتشف أو تبتكر شيئاً ، فذلك من شأن الذهن وحده ، وإنما شأنها تجريد المدركات ، وتعميمها ، وربط بعضها ببعض ، وحفظها ، وتيسير استعمالها فى المقاصد العملية .

(يتبع)

عبد الكريم الناصرى

---

(١) فكرة أو تمثل = بالألمانية Vorstelling ، وبالانجليزية والفرنسية representation أو Presentation . على أن معظم الباحثين فى فلسفة شوپنهاور ، وكذلك مترجو كتبه إلى الانجليزية ، يترجمون هذا المصطلح بـ « idéa » أى « فكرة » ، بحسب مفهوم هذا اللفظ عند « لوك » و « بركلى » . . .

(٢) عالم الظواهر هو التحقق الموضوعى « غير المباشر » للارادة ، لأن هذه تتحقق أولا فى « المثال » الافلاطونى ، الذى هو خارج المكان والزمان والعلية ، وإن كان مع ذلك راجعاً إلى عالم الفكرة . والمعرفة العيانية المباشرة للمثال من شأن « الفن » — وهى المعرفة العليا والمعرفة = = « الموضوعية » الحقيقية . بيد أننا نتحدث فى هذا المقال عن المعرفة بمعناها الضيق عند شوپنهاور ، أى المعرفة الخاضعة لمبدأ السبب الكافى ، وهى تشمل التجربة والعلم . ومقالنا هذا « مراجعة » وتلخيص نقدى للقسم الأول من كتابه الرئيسي (العالم كإرادة وفكرة) ؛ وعنوان هذا القسم : « العالم كفكرة — الوجه الأول — الفكرة خاضعة لمبدأ السبب الكافى موضوع التجربة والعلم » .

محاكم التفتيش

آخر صفحة فى تاريخ الأندلس الاسلامى

الثمن	للدكتور	البريد
٢٥ ص	على مظهر	٢ ص

يطلب من المكتبات الشهيرة